

حداد والعزي وسنو وحلاق و غليون وكشلي في اليوم الأول من جلسات مؤتمر "أي عروبة تصح في القرن الواحد والعشرين؟"
عروبة لبنان الحقيقية تنبع من وحدته واستقلاله واحترام خصوصيته وتعدديته

المستقبل - الجمعة 27 شباط 2009 - العدد 3232 -

فيديل سببتي

أسئلة كثيرة طرحت في جلستي الحوار في اليوم الاول من لقاءات مؤتمر "أي عروبة تصح في القرن الواحد والعشرين" في فندق البريستول الذي دعا اليه "تيار المستقبل". والأسئلة الكثيرة والمتعددة تأتي من تعقيد القضية التي تدور عليها أي العروبة سواء كان يتم تناولها من الناحية التاريخية او من الناحية السياسية البحتة او بمفهومها الفكري. والنواحي الثلاث المذكورة قد يتم تناولها كل على حدة، ولكنها بالفعل مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقا. فالتاريخ والسياسة حالة واحدة في ما يخص العروبة كفكرة، ولم تكن فكرة العروبة يوما الا ذات تأثيرات سياسية على حياة الشعوب العربية، سواء كان ذلك قبل نشوء وقيام الدول او بعده، وسواء كان يتعلق بطلب الوحدة الجغرافية بين الدول او الوحدة الثقافية والاقتصادية فقط، وسواء كان ذلك



قبل تحول فكرة العروبة الى أيديولوجيا تحملها أحزاب سياسية وتقاتل من أجلها بل وتسعى الى تحقيقها بالعنف او بعده.

في الجلستين الحواريتين تم تناول العروبة من زوايا مختلفة منها التاريخي ومنها الفكري ومنها السياسي، وقد طرحت تساؤلات كثيرة حول جدوى العمل على إعادة الحياة الى فكرة العروبة. الدكتور محمود حداد إعتبر أن الهوية العربية أو الوعي بها لم يخب سواء من الناحية الثقافية أو العرقية. والدكتور غسان العزي رأى أن الاوروبيين يحملون الحلم نفسه (الوحدة) بلغات مختلفة كما نحن نعيش الكابوس نفسه بلغة واحدة في طول الامة العربية وعرضها: كابوس الدولة المنقوصة والديمقراطية المفقودة. الدكتور عبد الرؤوف سنو تمنى لو تعي الشعوب العربية أهمية الوحدة والتلاقي لعالم عربي متخلف ومنقسم على نفسه، ما عرف مذاق الديمقراطية والحرية، كبلته أنظمتها في سجن كبير. ورأى الدكتور برهان غليون أنه يمكن إعادة بناء العروبة لتتحول إلى فكرة حية وملهمة، تساعد العرب جماعة وأفرادا على تجاوز حالة الانحطاط الأخلاقي والسياسي والفكري التي يعيشونها اليوم. الاستاذ محمد كشلي عرض تجربته مع النضال العربي في سنوات الستينات، واعتبر ان الرئيس رفيق الحريري دفع حياته ثمنا لتطبيقه المضمون الحقيقي لاتفاقية الطائف من خلال بناء وإعمار لبنان من جديد وترسيخ السلم الأهلي والعيش المشترك وتحقيق الوحدة الوطنية للوصول الى استقلالية القرار الوطني اللبناني وتحرره من التدخل السوري في شؤونه الداخلية. بدأت الجلسة الاولى عند الساعة العاشرة والنصف صباحا وامتدت حتى الواحدة وقد أدارها الاستاذ بشار شبارو، وتناوب على الكلام فيها الدكتور محمود حداد بمداخلة بعنوان "قراءة جديدة في تاريخ

الهوية ومعضلات القومية"، والدكتور غسان العزي بمداخلة بعنوان: "الهوية القومية والدولة الامة في المفهوم الفرنسي"، والدكتور عبد الرؤوف سنو بمداخلة بعنوان: "القومية الالمانية وتجلياتها الوجودية والامبريالية". وبعد استراحة الغداء بدأت الجلسة الثانية التي أدارها النائب روبير غانم، وقد تناوب على الكلام فيها الدكتور حسان حلاق بمداخلة بعنوان " العروبة من الحكم العثماني الى عصر النهضة"، والمفكر برهان غليون والاستاذ محمد كشلي بمداخلة بعنوان " العلاقات العربية - العربية (التجربة اللبنانية)".

البداية كانت مع الدكتور محمود حداد الذي اعتبر أن الاتهامات التي وُجّهت الى العروبة في العقود القليلة الماضية كثيرة فقد رُذلت وسفّحت وقام أكثر من مثقف برئائها ونعيها وأسهم بذلك أكثر من تيار فكري وسياسي على الأصعدة المحلية والإقليمية والدولية. هذا بالإضافة الى كون العروبة قد أنهكت بسبب المعارك المتكاثرة التي جرى بغير حق اعتبار أنها مسؤولة عنها. والواقع أن الهوية العربية أو الوعي بها لم يخب سواء من الناحية الثقافية أو العرقية منذ ما قبل ظهور الإسلام مروراً بالمرحلة الإسلامية الأولى ثم العصر الوسيط وصولاً إلى العصرين الحديث والمعاصر. ثم عرض للفكرة "العربية تاريخياً"، منتقلاً الى الفترة الحديثة التي أشار فيها إلى إشكاليتين تاريخيتين لا تزالان مطروحتين في مسألة نشوء الفكرة العربية الحديثة. الإشكالية الأولى، تتعلق بنسب الفكرة. أما الإشكالية الثانية فتتعلق بمراكز الفكرة القومية العربية المبكرة هل كانت بيروت هي المدينة الأم للفكرة كما يقول أنطونيوس؟ أم أنها كانت دمشق وحماه وحمص وحلب كما يرتئي أرنست دون؟

ثم تحدث الدكتور حداد عن هدف قيام أمة ودولة عربية واحدة من المحيط إلى الخليج معتبراً ان هذا الهدف يشوبه نوع من الطوباوية أو المثالية فإن إنشاء جامعة الدول العربية كان بمثابة تأكيد على "الواقعية" إذ أصرت النخب العربية الحاكمة للكيانات العربية السياسية بعد الحرب العالمية الثانية- ولا تزال - على تفضيل بقاء كل منها داخل حدوده الذاتية مع اعتراف جماعي عربي ودولي بأن هذا هو النظام المقبول للتعامل بين هذه الدول بعضها مع بعض ومع العالم. أما بالنسبة الى "الوطنية القطرية" إذا ما كانت تعطي أولوية مرحلية لمشاكلها المحلية ليست بالضرورة معادية " للقومية العربية"؟ قال الدكتور حداد ان الامر قد أشكل علينا لان الكثير من العصبية ما دون القطرية بل ما دون الوطنية تدثرت برداء الوطنية والقومية. ثم أنهى الدكتور حداد مداخلته المطولة قائلاً: "إذا كان من غير الواقعي تصور أمة عربية واحدة في دولة عربية واحدة في المستقبل المنظور بسبب عدم توفر لا الظروف الذاتية ولا الموضوعية في المرحلة الحاضرة، فإنه من الخطأ عدم الاعتراف بأن الكثير من الثقافة والكثير من المشاعر والمصالح لا تجمع بين أطراف بلاد العرب. فنحن لسنا بصدد إقامة دولة عظمى واحدة ولكننا نستطيع أن نأمل بأن تؤدي الوحدة الثقافية وجدية الإرادة السياسية إذا توفرت وصح مسارها وفسد فسادها، أن نخطو بعض الخطوات نحو الخروج مما نحن فيه من تردي بالغ".

العزي: الامة في المفهوم الفرنسي

ثم تحدث الدكتور العزي عن الدولة الامة في الفكر الفرنسي وعن قيام ونشوء دولة إسرائيل قبل ان ينتقل الى الحديث عن الدستور الاوروبي المشترك الذي لم يبرم، معتبراً انه لم يحدد ديناً رسمياً لأوروبا فمعنى ذلك ان الاتحاد مفتوح، نظرياً على الأقل، امام من يريد الاندماج فيه بمعزل عن دينه او عرقه او ثقافته (تركيا مثلاً) فالمهم ارادة الانضواء عبر اعتناق مبادئ المجموعة وقيمها. دول اوروبا هي التي اخترعت مفهوم الامة الذي تحول الى شوفينية التهمت شعوبها وادت الى

انتحار القارة في الحربين العالميتين. لذلك عمدت الى اعادة رسكلة مفهوم الامة عبر اضافة قدر من البراغمية اليه، أي خلق مصير مشترك يتخطى مجرد ارتصاف دول قومية الى جانب بعضها البعض. المجموعة الاقتصادية قامت في الاساس كرد على المغالاة القومية في النصف الاول من القرن العشرين قبل ان تتجه الامور صوب الامحاء التدريجي لسيادة الدول لمصلحة مساحة مشتركة (التشريعات والعملة الموحدة وغيرها). لكن الاساسي يبقى كامنا في النفوس: الشعور الذي يمتلك كل مواطن في اوروبا بالانتماء او عدمه الى كيان واحد. واذا ارادت التحول الى امة ينبغي على اوروبا، على المستوى المؤسسي، ان تذهب الى آخر المطاف في مسيرة التوحد كأن يحل البرلمان الاوروبي في ستراسبورغ محل البرلمانات الوطنية لتمثيل سيادة اوروبية واحدة بالمعنى الذي ذكره ايمانويل سيبس أي الطبقة الثالثة (الشعبية) وان تقوم احزاب سياسية على مستوى القارة (حزب شيوعي اوروبي او اشتراكي او بيئي الخ...) بالاضافة طبعا الى الخارجية والدفاع المشتركين. وهذا طريق ما يزال طويلا ومزروعا بالالغام والعقبات.

هناك امم من غير دول (الاكراد مثلا) لكن برهن التاريخ ان الامم يمكن ان تنشأ بطريقتين: في فرنسا مثلا كانت الدولة المطلقة المركزية موجودة قبل الامة اما في المانيا فبالعكس كانت الامة موجودة في الازهان ولم تقعد على دولة الا في العام 1871 مع بسمارك.

ورأى العزي ان الامة العربية التي تمتلك من عناصر الدمج والتكامل ما لا تملكه اوروبا ما تزال تنتظر ان ينعم الله عليها بزعماء وحدويين يمتلكون القناعة والرغبة والقدرة على ترجمة احلام شعوبهم بالاتحاد. المفارقة ان الشعوب الاوروبية لم تبرهن عن رغبة حقيقية وفعلية بالاتحاد بدليل انه في فرنسا، وهي احدي العجلتين اللتين يسير عليهما الاتحاد (الآخرى المانيا) منذ ان اطلق ارستيد بريان الفكرة بين الحربين العالميتين ثم تبناها بعد الحرب المستشار ادينوار وروبرت شومان وجان مونييه ثم شارل ديغول، صوت الشعب في العام 1992 بنسبة فقط 50,5 في المئة لمصلحة معاهدة ماستريخت وفي العام 2004 اجهض الدستور الاوروبي المشترك عندما صوت ضده. وللمعلومية فقط فان اوروبا تصرف سنويا اكثر من مليار يورو فقط على ترجمة الأوراق الرسمية وفي كل اجتماع اوروبي ينبغي حضور أكثر من 25 مترجما أي من كل لغة أوروبية الى كل اللغات الأخرى، وهكذا. يمكن القول انهم يحملون الحلم نفسه بلغات مختلفة كما نحن نعيش الكابوس نفسه بلغة واحدة في طول الامة العربية وعرضها: كابوس الدولة المنقوصة والديمقراطية المفقودة.

سنو: في الوحدة تكمن القوة

وفي مداخلته عن القومية الألمانية وتجلياتها الوحوية والعنصرية والإمبريالية، تحدث د. عبد الرؤوف سنو عن أربع مراحل مرت فيها القومية الألمانية، وهي: مرحلة التكوين وإنشاء الدولة الألمانية الموحدة عام 1870؛ ومرحلة اكتمال مكونات الإمبريالية الألمانية من سياسية واقتصادية واجتماعية وعسكرية وتبشيرية؛ وتحول القومية الألمانية إلى مشروع للهيمنة على أوروبا في عصر الإمبراطور وليم الثاني، ووصول هذا المشروع إلى طريق مسدود في الحرب العالمية الأولى؛ ومرحلة إعادة تفعيل المشروع السابق في عصر هتلر، بعد إضافة العنصرية إلى برنامجه السياسي. فخسارة ألمانيا الحرب، لم تدفعها إلى الجنوح نحو السلم الأوروبي. ومن وجهة نظر سنو، فإن تقسيم ألمانيا إلى دولتين منفصلتين بعد الحرب العالمية الثانية تخضع كل منهما إلى الكتلة الغربية أو إلى الكتلة الشرقية، اعتبر ضمناً للأمن والسلم الأوروبيين. لكن ترتب عليه، في ظل الحرب الباردة، انشطار الشعب الألماني في دولتين متعديتين. ولم يتم تطبيع العلاقات بينهما إلا منذ عام 1972. واعتبر سنو أن الأحداث في شرق أوروبا أصابت بدورها ألمانيا الديمقراطية، ما جعل

ألمانيا الاتحادية تتلقف الفرصة تلك وتطرح بديبلوماسية فائقة مع الغرب ومع الاتحاد السوفياتي عملية "لم الشمل" للشعب الألماني الواحد على أساس إندماج ألمانيا الموحدة بالغرب وبحلف الناتو. وخلص إلى الاستنتاج التالي: "إن إرادة التوحيد ولم الشمل لدى الألمان كانت أقوى من إرادة الانفصال. ففي الوحدة تكمن القوة والتصميم والإرادة الجماعية للدخول إلى المستقبل، فعسى أن تعي الشعوب العربية أهمية الوحدة والتلاقي لعالم عربي متخلف ومنقسم على نفسه، ما عرف مذاق الديمقراطية والحرية، كبلته أنظمتها في سجن كبير".